نظـــرة ثـانيـــة على جـــذور الهزيـــمة

ان القوى الاجتماعية الجبارة هي التي تتصارع في التاريخ ، وان الذي يحرك بطور المجتمع ليس ارادة بعض الافراد بل الصدام والصراع بين الطبقات الاجتماعية(١) .

لقد شهد القرن التاسع عشر ظهور قوة جديدة هي البرجوازية بعد ان اكتملت عوامل نموها وصارت تعمل من اجل السيطرة على المجتمع واستلام السلطة السياسية ، بالقضاء على الحكومات المطلقة والنظم الاقطاعية(٢) التي كانت بمرحلة الانحطاط والسقوط ، هذه الانظمة التي استندت في حكمها على اساس النظرية اللاهوتية في التاريخ(٣) : التي صورت نظام الاقطاع للجماهير بانه وليد مشيئة القدر لكي يبرر ايديولوجيو النظام الاقطاعي استغلالهم وتهميم للشعب ، الا ان تطور البرجوازية وظهور النظام الرأسمالي المنافض مع الاقطاع اجهز على هذا النظام وأقام المؤسسات الرأسمالية بدل المؤسسات الاقطاعية .

ولم تكن ميزة هذا القرن هي انتصار الرأسمالية فقط بل تميز ايضا بنمو الوعي القومي والوطني حتى اصبح يدعى بعصر القوميات ، وانتشار الوعي القومي الذي اصبح المحرك الاساسي بالاضافة الى التنافس الرأسمالي للنزاع بين الدول الاوروبية ، من اجل الحصول على الاسواق ومصادر الخامات لصناعتها ، ونتيجة لهذا التنافس حدثت حروب استعمارية طاحنة بين الدول الرأسمالية الاوروبية .

ان طبيعة هذا العصر الرأسمالية المتنافضة والمتصارعة مع الاقطاع دفعتالدول الرأسمالية الاوروبية للصراع مع آخر مركز من مراكز الانظمة الاقطاعية ، وهو الحكم العثماني ، لتحقيق اطماعها الاستعمارية في هذه المنطقة التي يحكمها نظام يعيش مرحلة الانهيار والانحطاط ، متنافسة فيما بينها على مناطق نفوذ استعمارية في ممتلكات الامبراطورية العثمانية ، ولهذا ما ان اطل القرن العشرون حتى وصلت مرحلة التنافس بين البرجوازيات الاوروبية الى اوجها، مشكلة محورين استعماريين احدهما دول الحلفاء، والثاني دول المحور بزعامة المانيا . وقد تطور هذا التنافس الى حرب عالمية شملت معظم الكرة الارضية (٤) .

ومع هذا التطور الرأسمالي ، وفي ظل النزاع بين البرجوازيات الاوروبية نمت قوة رأسمالية اخذت تتكتل داخل المجتمعات الاوروبية الرأسمالية من اليهود ازدادت فاعليتها الاقتصادية والسياسية بشكل ملحوظ ، واكتملت مع بعضها البعض ومستفيدة من الصراع بين البرجوازيات الاوروبية ومتأثرة بعصر انتصار الرأسمالية والمفاهيم القومية ، حيث اثر هذا العصر بشكل بارز على اليهود قوميا ، بعد عام ١٨٧٤ (وهو العام الذي نالوا فيه حقوقهم السياسية والدينية في بلجيكا والدانمارك وانجلترا وبولونيا والمانيا) .

وقلوا ان دياناتهم يمكن ان تجعل منهم امة واحدة ، كما حاولوا ، انطلاقا من هذا الاعتقاد، وتقليدا للدول الاوروبية الاستعمارية في الاستعمار والفتوحات ، ان يرسلوا بعثات للاستيطان في عدد من القارات ، وكانت هذه الفترة تمثل مرحلة جديدة في تاريخ اليهود ، حيث بدأت بوادر ظهور حركة سياسية جديدة اطلق عليها الحركة الصهيونية نسبة الى احد جبال القدس متخذة من فلسطين هدفا لها ، هذه الحركة مثلت القيادة السياسية للرأسماليين اليهود ، ولهذا بدأت تهودهم سياسيا وايديولوجيا ، وكانت تتهيأ لهم الفرص لكي تثبت مواقعها وتحقق طموحها ولهذا تراها استغلت نزاع الدول الرأسمالية، فاتجهت لمعاونة الطرفين ، كل على انفراد ، من اجل الحصول على وعد بانشاء وطن قومي لليهود ، مقابل تقديم مساعدات مادية ومعنوية ونجسية

فطرحت الفكرة اولا على المانيا من اجل ان يعطى لليهود الحق بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فاتصلت المانيا بحليفتها الامبراطورية العثمانية حول مسالة السماح لليهود باقامة وطن قومي لهم في فلسطين الا ان الباب العالي العثماني رفض هذا العرض لاسباب سياسية ودينية ، ولما رات الحركة الصهيونيه ان المانيا غير قادرة على تحقيق اطماعها ، لجأت الى بريطانيا عارضة خدماتها العسكرية والفنية والتجسسية لمساعدتها في نزاعها مع دول المحور ، مقابل مساعدة اليهود بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، وهذا العرض لاقى ، موافقة بريطانيا من حيث المبدا وذلك لحاجة بريطانيا الى المال والخدمات الفنية والجاسوسية التابعة للحركة الصهيونية ومن اجل مساهمة الحركة الصهيونية باقناع امريكا للدخول في الحرب الى جانب الحلفاء ورابحا من اجل ان تكون لبريطانيا نفوذ في فلسطين عن طريق الحركة الصهيونية اللاصقة لقناة السويس كي تتمكن من انتزاعه من فرنسا وخاصا التمهيد بان تكون فلسطين من حصتها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، اضافة الى تاثير رؤوس الاموال اليهودية ومنها اموال اكبر راسمالي في العالم روتشلد على بريطانيا حيث كانت تمثل مركز الراسمال المالي العالمي آنذاك ، ومن هنا حصل التعاقد بين الرأسماليين الصهاينة وبريطانيا ضد العرب ، كما ان لموقف بريطانيا مطامح استعمارية بعيدة المدى في المنطقة العربية انتبهت لها مبكرا ودعت كافة الدول الاستعمارية الى مؤتمر ١٩٠٧ (٥) باعتبارها زعيمة الدول الاستعمارية واوضحت الخطر الذي يهدد الاستعمار الغربي في البحر الابيض المتوسط حيث يعيش على شواطئه الشرقية شعب واحد اراضيه معلوة بالكنوز والثروات المعدنية ، ولهذا اتخذت قرارا يقضي بأن تعمل الدول الغربية على تجزئة المنطقة بالقامة حاجز بشري في وسط هذا الشعب بمنع قيام اي وحدة او اتحاد لكامل التراب العربي .

الحرب العالمية الاولى : ١٩١٤

فلنا ان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانا يمثلان عصر القوميات وعصر انتصار الرأسمالية على الاقطاع ، لهذا تأثرت الجماهير العربية هي الاخرى بطبيعة هذا العصر ، بالاضافة الى ان محاولات التتريك العثمانية للعرب هي الاخرى لعبت دورا مهما في اثارة الوعي القومي، وحولت الشعور الوطني من حس ديني الى شعور له كيانه الخاص بالرغم من انه كان يرتبط بالاسلام ، ثم تطور واستقل عن الحس الديني، الى ان اصبح عند الفئة المتعلمة وعيا قوميا يعرف الوطن بقدر ما اعادت المفاهيم التقليدية ان نعرفه، من انه مجرد « مبيت للانسان والحيوان » (٦) .

ولهذا ، ما ان اشتد الصراع بين الدول الرأسمالية حتى انتبه العرب لهذه الفرصة وراوا بالحرب فرصتهم للتخلص من الاستعمار العثماني ، والعمل على وحدة واستقلال الامة العربية ، فبدأت المناورات بين ابناء الطبقة البرجوازية والضباط العرب في الجيش العثماني والمثقفين والزعماء الدينيين من أجل تحديد موقف ، وراوا ان التعاون مع العثماني ضد الحلفاء يعني بقاءهم تحت السيطرة الاستعمارية، اذن ان عطهم يجب ان يكون معاديا للعثمانيين في هذه الحرب ، واخيرا قرروا التعاون مع الحلفاء بناء على تاكيدات حصلوا عليها من الانكليز ، مفادها ان دول الحلفاء سوف تحقق لهم الجميل اذا ما دخلوا الحرب معهم ضد دول المحور ، وان دول الحلفاء هدفها مساعدة العرب في سبيل نيل حريتهم واستقلالهم .

ومن الملاحظ ان المسؤولين الانكليز حصروا اتصالاتهم بزعماء الحركة الوطنية من ضباط ومثقفين شباب من ابناء الوجهاء والاثرياء واصحاب النفوذ(٧) ، وقد وصلت هذه الاتصالات الى حد دخول العرب الى جانب الحلفاء في حربهم ضد الالمان .

وفي الطرف الاخر ، بدأت بريطانيا في ٢ شباط ١٩١٧ رسميا معاوضاتها مع الحركة الصهيونية من اجل تنفيذ الاتفاق المبدئي الذي حصل بينهم لاقامة وطن قومي لليهود في فلسطين رغم اتفاقها مع العرب ودخولهم الحرب الى جانب الحلفاء٨.

وبعد مداولات توصل الطرفان (البريطاني – الصهيوني) الى مرحلة اصدار تصريح بلفور الذي وجه الى اللورد روتشلد في ٢ شباط ١٩١٧ موقع من قبل جيمس بلفور وزير الخارجية البريطانية انذاك ، وقد حظي هذا الوعد بموافقة رئيس الولايات المتحدة الامريكية الذي اطلع عليه قبل اعلانه رسميا ، وايدته فرنسا بعد اربعة شهور .

ان من نريد ان يسجل حوادث التاريخ في هذه المرحلة يرى بوضوح موقف الحلفاء من العرب ، هذا الموقف الذي استغل العرب في الحرب وما ليث ان نكث بوعوده عند انتهائها ، وقد ظهر ذلك واضحا في بنود الاتفاقية السرية التي جرى توقيعها بين وزيري خارجية فرنسا وانكلترا والتي صارت تعرف باسميهما « سايكس – بيكو » والقاضية باقسام الوطن العربي وتجزئته ، وقد تركز خلاف بريطانيا وفرنسا حول فلسطين ، وتبعيتها بعد الحرب وقد ظل هذا الخلاف حول فلسطين معلقا ، وقرر الحلفاء ان تكون دولة تحت الانتداب البريطاني وظلت بنود هذه الاتفاقية خافية على العرب حتى اذاعها الاتحاد السوفياتي بعد انتصار ثورة اوكتوبر عام ١٩١٧ .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ بالتاكيد لم ير الحلفاء بوعدهم تجاه العرب بل جزاوا الوطن العربي الى مناطق نفوذ فيما بينهم .

لقد « كافا » الحلفاء العرب مقابل اشتراكهم في الحرب الى جانبهم بوعد بلفور وتجزئة واستعمار وطنهم ، من اجل ان يحولوا المنطقة العربية الى سوق لمنتجاتهم ومصدرا لخامات صناعتهم وقواعد عسكرية لجيوشهم الاستعمارية، لهذا كان من المفروض على الحركة الوطنية العربية القومية والاقتصادية ، اي انجاز الاستقلال ووحدة البلاد العربية ، وبناء الاقتصاد الوطني ، باتجاه راسمالي ، الا ان هذه الطبقات التي قادت الحركة القومية العربية انذاك لم تكن طبقات برجوازية متنافضة مع الاقطاع بالشكل الذي حدث في اوروبا ، بل انها طبقة طفيلية غير متنافضة معه ، ولهذا عجزت عن اداء مهامها ارتبطت بالاستعمار ومثلت دور الوسيط والوكيل لتسهيل بيع منتجاته في الاسواق العربية ، كما ان هناك عاملا اخر لعب دورا في عرقلة استمرار الثورة العربية في طريقها من أجل الوحدة والاستقلال هو خيانة الراس القيادي الذي كان على راس قيادة الانتفاضة العربية .

نضال الشعب الفلسطيني والعربي ضد الاحتلال الاوروبي الاستعماري

بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة اصبح الوطن العربي يعيش حالة احتلال عسكري مباشر من قبل الجيوش الاستعمارية ، التي لاقت مقاومة عنيفة اينما حلت ، سواء بالعراق ام سورية ، ولكن في فلسطين كانت الصورة تختلف من الناحيتين ، فمهمة الجيش البريطاني في فلسطين ليست الاحتلال فقط بل التمهيد للصهاينة في تركيز اوضاعهم الاستعمارية في بناء المستعمرات والهجرة المسخرة وبناء المؤسسات الصهيونية، كي تتمكن بريطانيا من ان تبر بوعدها للحركة الصهيونية بانشاء وطن قومي في فلسطين .

نخوف الشعب من نتائج وعد بلفور ، ولهذا بدأ يعقد المؤتمرات الوطنية والاجتماعات السياسية ويؤلف الجمعيات للاعراب عن استنكاره ومناهضته للسياسة البريطانية وللحركات الصهيونية، فقامت المظاهرات والاضرابات العنيفة الشاملة التي تشبث على اثرها صدامات دامية خلال عام ١٩١٧ واخذت تزداد حالات التوتر والاضرابات حتى وصل تراكم الحوادث الى مستوى ادى الى التهاب ثوري معدم في ٤ نيسان ١٩٢٠ ، تميز باشتباكات دموية في مناطق عديدة من البلاد . ورغم صمود ونضال شعب فلسطين واستعداده للقتال من اجل حرية وكرامة وطنه فان المؤامرة ظلت مستمرة حيث ازدادت الهجرة الصهيونية وبدأ تحديها للعرب باسناد ودعم الاحتلال البريطاني ، ولم يكن شعب فلسطين وحده في هذا النضال ففي العام نفسه حدثت ثورة مسلحة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ في العراق ، حددت شعاراتها بانهاء الانتداب البريطاني على العراق والنضال من اجل الوحدة العربية ومناصرة شعب فلسطين ضد الحركة الصهيونية(٩) .

والحقيقة ان تاريخ الشعب الفلسطيني في هذه المرحلة تميز بانتفاضات لا تحصى قدم فيها الالاف من الشهداء .

وفي عام ١٩٢٢ اصدر المندوب السامي البريطاني الكتاب الابيض الذي حدد دستور فلسطين على اساس الانتداب وتصريح بلفور ، ولكن الشعب لم يستكن بل كرد انتفاضاته في اعوام ٢٤ و ١٩٢٩ ، بل وظل النضال يتصاعد حتى انفجار الثورة الشعبية في ربيع ١٩٣٦ ، التي تعتبر ثورة خالدة من ابرز ملاحم شعبنا البطولية ضد الاستعمار ، حيث انتفضت جوع العمال والفلاحين وكل الشعب ، ضد الانتداب والصهيونية في ثورة سقط فيها اكثر من الف شهيد وآلاف الجرحى والمعتقلين ، كما رافق هذه الثورة الجبارة اضراب عام مستمر ابتدا من ١٩ نيسان ولمدة ستة اشهر شمل كل اشكال العمل ، وامتد الى جميع انحاء البلاد ، وحتى المساجين اضربوا عن العمل في سجونهم !

وبعد فترة اخرى اضطر الثوار الى استئناف الثورة بعد ان اوقفها القيادة البرجوازية الاقطاعية تلبية لنداء الحكومات العربية .

وفي عام ١٩٣٩ اندلعت الحرب العالمية الثانية وهنا نرى العرب يقعون مرة اخرى مع الحلفاء بالرغم من التجربة السابقة واصرار الحلفاء على اسناد الحركة الصهيونية في صراعها مع عرب فلسطين .

قضية فلسطين في الامم المتحدة

ان استمرارية عجز الحكومات العربية والقيادات الوطنية التي تصدت لقيادة النضال الوطني في تلك المرحلة ، عن اداء مهامها القومية بالنسبة لقضية فلسطين والوحدة العربية والاستقلال وبناء الاقتصاد الوطني لاسباب تكلمنا عنها في مكان اخر من هذا الموضوع ، هذا العجز شجع الاعداء الامبرياليين والصهاينة في التمادي لتحقيق مكاسب اكبر على حساب العرب، وخاصة فيما يتعلق بالمسالة الفلسطينية والتي تعتبر من اهم القضايا القومية المطروحة على النضال

خطاب مندوب الاتحاد السوفياتي ، غروميكو ، ١٩٤٧ وضح خطا الموقف بالعبارات التالية : « ان مشروع تقسيم فلسطين هو امبريالي ، والحل الثوري لا يمكن وجوده الا من قبل الحركات الثورية الفلسطينية ، وان عدم وجود هذه الحركات الثورية لا يمكن ان يعني تاييد حل امبريالي » . وقد اعلن عن تحفظ الاتحاد السوفياتي على قرار التقسيم .

ثم جاءت الاجتماعات التي توالت لبحث المسالة ، وتغير موقف الاتحاد السوفياتي فوافق على ، وايد ، قرار التقسيم !

لقد استعرضنا المسالة الفلسطينية وتطورها وخرجنا بنتائج وحقائق توضح ان الامبريالية ارادت لابنتها ويربيبها وحليفها الصهيونية ان تنشىء لنفسها وطنا قوميا في فلسطين ، وواضح معنى هذه العلاقة وهذا الترابط في المصالح من البدء وحتى الان ، كما استعرضنا موقف الماركسية – اللينينية والحركة الشيوعية من الحركة الصهيونية واوضحنا هذا الاستقراء الى كشف تناقض شديد وعلاق فكري عميق بين الايديولوجية الانسانية (الشيوعية) وبين الايديولوجية الشوفينية العنصرية (الراسمالية الصهيونية) .

ومن هنا فان موقف اي بلد يدين بالمذهب الراسمالي يكون الى جانب الحركة الصهيونية ، وموقف الى بلد يدين بالمذهب الشيوعي يكون بجانب شعب فلسطين ، ولكن الوقائع اكدت الحقيقة الاولى واخطاء في الثانية ، وهنا يقف المرء بكل استغراب امام هذه المغالطة العلمية ، ليرى كيف حصل مثل هذا الخطا غير المبرر من الاتحاد السوفياتي .

ان ما حصل في الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية العالمية من اساليب بيروقراطية وتصفيات جسدية وانتهاك لمبادىء الشيوعية العلمية على يد ستالين والمسلكية الستالينية لا يستغرب هذا الموقف لان اسلوب هذه القيادة التي تربعت على قمة الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية العالمية بعد لينين العظيم هو اسلوب تميز بالفردية والدكتاتورية والابتعاد عن الكثير من حقائق ومبادىء الماركسية – اللينينية الخلاقة التي اضافت الى اخطاء ستالين وتصوراته لولا اسرائيل ، عوامل جديدة دفعته للوقوف الى جانب المشاريع الامبريالية ضد الشعب الفلسطيني مواقف بعيدة كل البعد عن مبادىء التضامن الاممي البروليتاري وبعيدة كل البعد عن الانسانية التي رفعت الماركسية – اللينينية لواءها في ثورة اوكتوبر الاشتراكية .

ان عرضنا للمواقف الدولية لكي نستخلص كيف صنع ١٥ ايار ١٩٤٨ بخاذل الطبقات البرجوازية والاقطاعية الفلسطينية والعربية ، واخلاق جميع الدول الكبرى الامبريالية والاشتراكيه ولهذا فهو وليد تآمر وخيانة كبيرين تعرض لهما شعبنا منذ بداية القرن العشرين حتى الان . علما بان موقف الصين الشعبية التي استقلت في عام ١٩٤٩ كان ايجابيا من هذه القضية ، حيث لم تعترف باسرائيل ولم تقم معها اي نوع من العلاقات .

١٥ ايار ١٩٤٨

في منتصف ليلة ١٤/١٥ ايار غادر المندوب السامي البريطاني ميناء حيفا معلنا نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين بعد ان مهد للحركة الصهيونية بانسحابه التدريجي كي تسيطر على المواقع الاستراتيجية في الاراضي الفلسطينية التي وردت في التقسيم لصلحة الصهاينة الصهيونية او التي لم ترد ولكنها احتلها الصهاينة عنوة ، ولهذا وصلت المؤامرة الدولية الكبرى الى نهايتها في هذه الليلة لكي تفتح بداية مرحلة جديدة مليئة بالمآسي والويلات لشعبنا العربي في فلسطين، هذا الشعب الذي تآمر عليه الامبرياليون والصهاينة وامتنع عن مناصرته التقدميون والاشتراكيون انذاك ، فبالتاكيد ان وضعا دوليا وطبقيا وسياسيا بالاستعمار الانجلو امريكي) واحزابا كانت تمثل تعبيرات سياسية لطبقات عجزت عن الدفاع عن الوطن ووصلت في خيانتها الى موقف لاوطني .. بعد كل هذه السلسلة من المؤامرات توج الامبرياليون والصهاينة تآمرهم بقيام دولة اسرائيل في ١٥ ايار ١٩٤٨ في جزء من ارض فلسطين.

فكيف نصرف العرب ازاء هذا اليوم الاسود ؟

ابو انمار

في العدد القادم :
- مواقف الحكومات العربية من ١٥ ايار
- مواقف الاحزاب
- الرد على العدو

الحركة الصهيونية واسرائيل
بقلم هاني الهندي
السعر: ٤ ليرات
دار الطليعة - بيروت

على طريق الثورة الفلسطينية
"وثائق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"
دار الطليعة - بيروت